الدرس الرابع، مقياس التواصل الثقافي.

ماستر2 تاريخ وحضارة الغرب الإسلامي.

الرحلة العلمية وحركة العلماء

الرحلة لغة الترحيل والارتحال والسير والضرب في الأرض، فجاءت الرحلة بمعنى الارتحال أي الانتقال من مكان لآخر، وجاءت بمعنى الجهة التي يقصدها المسافر، فالرحلة هي السير والانتقال والجهة او المقصد الذي يراد السفر اليه (ابن منظور لسان العرب)، وتعتبر الرحلة من العوامل التي ساهمت بشكل كبير في التواصل بين المشرق والغرب الإسلامي عبر فترات تاريخية عديدة الا انها تباينت من مرحلة الى أخرى بسبب تباين الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية.

تسعى الرحلة الى تحقيق هدف معين ماديا كان او معنويا ولهذا كان للرحلة دوافع وعوامل مختلفة، منها ما تعلق بالجانب الديني كفريضة الحج ومجاورة المسجد الحرام والمسجد النبوي، ومنها ما تعلق بالجانب التجاري والاقتصادي، او ما تعلق بطلب العلم وزيارة المراكز العلمية، وعليه يمكن استنتاج أنواع الرحلات، ومنها رحلات طلب النجاة ويقصد بها الهجرة والخروج من ارض الكفر او التي غلب عيها النصارى (الهجرة الى الحبشة والهجرة الى المدينة والهجرة الاندلسية.) اما الرحلات لطلب الدين فيدخل فيها الرحلة العلمية ورحلة الحج ورحلة الجهاد او الرباط، اما النوع الثالث فهو رحلات طلب الدنيا وهي خاصة بالتجارة وطلب الرزق، كما يمكن ان نظيف الرحلات السفارية أو السياسية (عبد الحكيم عبد اللطيف، الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها).

ورغم تعدد أنواع الرحلات الا أنها لا تختلف كثيرا من حيث الأهداف العامة للرحلة، حيث كان طلب العلم هو الهدف الأساسي لأنه من المسائل الهامة التي يسعى لتحقيقيها كل متعلم، حيث لم تقف الصعوبات والحدود أمام حرص طالب العلم في الوصول الى منابع

العلم الاصلية، ولقاء الشيوخ ولأخذ عنهم وفي ذلك يقول ابن خلدون في المقدمة " إن البشر يأخذون معارفهم واخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا" وكانت قيمة طالب العلم تحدد من خلال ما قام به من رحلات ومن خلال عدد المدرسين والشيوخ الذين أخذ عنهم، ويشار الى ذلك في التعريف بالعلماء والفقهاء، ويذكر هؤلاء في كتبه، ومنهم أبو عبد الله المجاري الاندلسي في برنامج المجاري، حيث يترجم لشيوخه الذين اخذ عنهم أثناء رحلته، وكذلك ابن غازي أبو عبد الله الذي يذكر في فهرسته ثمانية عشر شيخا.

وهكذا كان الطلبة يشدون الرحال الى مختلف الأقطار الإسلامية، خاصة تلك المناطق التي تتمتع بعوامل الجدب من توفر المؤسسات العلمية ومراكز الاواء والاستقرار السياسي وتشجيع السلاطين للعلم والعلماء.

أما مسالك الرحلة فقد كانت هناك دروب برية وبحرية، وكان الطريق الرئيسي من المغرب الأقصى خاصة من فاس مرورا بمدن المغرب الأوسط غبر تلمسان ووهران ثم جزائر بني مزغنة الى بجاية وتونس وطرابلس الغرب ثم برقة الى الإسكندرية ومنها الى القاهرة عبر النيل الى ميناء عيداب ثم مدن الحجاز، ومن القاهرة يتفرع طريق اخر الى بلاد الشام وبيت المقدس.

أما الطريق البحري فإما من مدن الأندلس خاصة ألمرية الى موانئ المغرب الأوسط هنين ووهران أو تنس ثم بجاية فتونس الى الإسكندرية، أو من الاندلس الجزيرة الخضراء الى سبتة او طنجة ثم موانئ المغرب الأوسط ومنها الى الإسكندرية وهو نفسه طريق الحج.

مصنفات الرحلة اهتم الكثير من الذين ارتحلوا الى بلاد المشرق او الحجاز بتدوين رحلاتهم في كتب أصبحت من المصادر الأساسية لتاريخ تلك المناطق، وقد عرفت بكتب الرحلة

وعادة ما تنسب الى أصحابها أو الأماكن المقصودة، وهناك من جمع بينها وبين الفهارس ومن اهم هذه المصنفات.

ـ ابن سعيد المغربي (ت685هـ) من الرحالة الأوائل سنة 639هـ صنف كتابا النفحة المسكية في الرحلة المكية،

ـ ابن رشيد السبتي، (ت 721هـ) قام برحلة سنة 683 الى الحجاز صنف رحلته المسماة ملئ العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة الى الرحمين مكة وطيبة.

ـ محمد العبدري،(تاريخ الوفاة مجهول) قام برحلة الى المشرق 688هـ ودون رحلته في كتاب سماه الرحلة المغربية.

ـ ابن بطوطة اللواتي الطنجي (ت 770هـ) صاحب الرحلة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، وأبو البقاء خالد البلوي (ت780هـ) رحلة الى الحجاز ودون رحلته، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ثم أبو الحسن القلصادي الذي رحلته المسماة رحلة القلصادي.

أما الرحلات من المشرق الى المغرب فهي رحلة عبد الباسط بن خليل القاهري (ت920)، زار تونس ثم بجاية ومدينة الجزائر ثم تلمسان حيث التقى بأبي عبد الله العقباني وابن زكري ثم الاندلس والتقى بابي العباس احمد الشريف التلمساني وفي سنة 871هـ عاد الى القاهرة.

حركة العلماء بين المغرب والمشرق.

لقد تأثرت حركة العلماء والطلبة من المغرب الى المشرق بالظروف السياسية والثقافية، لذلك هناك تفاوت في أعداد العلماء الذين ارتحلوا الى المشرق بين مرحلة وأخرى حسب الظروف والإمكانات المتوفرة، من مراكز علمية والاستقرار السياسي وتوفر الامن، كما اتجاه الرحلة بين المغرب والمشرق لم متوازي فنسبة الوافدين من المغرب على المشرق كانت كبيرة بسبب

الازدهار العلمي والثقافي الذي شهدته حواضر المشرق بعد انتشار الإسلام، وبالتالي لم يكن اهل المشرق في حاجة الى التنقل الى باقي الأقاليم الإسلامية، الا أن هذه الأوضاع تغيرت بعد ذلك بعدما ازدهرت حواضر المغرب الإسلامي وأصبحت مقصدا للطلبة مثل القيروان وتونس وبجاية وتلمسان وفاس وقرطبة وغيرها من مدن المغرب الإسلامي.

لقد كان من عادة طلبة العلم الارتحال الى المشرق رغم الصعاب الكثيرة التي تعترض هؤلاء، وقد كان عددهم كبير جدا حيث من المستحيل إحصاء هؤلاء حيث تزخر كتب التراجم العدد الهائل منهم، فالمقري عندما يتحدث عن رحلة الاندلسيين الى المشرق والذين عرفهم فقط فإنه من المستحيل إحصائهم " أعلم جعلني الله تعالى وإياك ممن له للمذهب حق انتحال، أن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب الشديد المحال، ولو اطلقنا عنان الأقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء الاعلام لطال الكتاب وكثر الكلام" (المقري نفح الطيب ج2 ص6)، هذا القول يفسر العدد الكبير من المرتحلين من بلاد المغرب الى المشرق الإسلامي للآساب السالفة الذكر، ولذلك سنحاول التطرق الى بعض النماذج القليلة من هؤلاء فقط.

ففي المرحلة الأولى بعد الفتح كانت حركة العلماء من المشرق الى المغرب، وكان الهدف الرحلة اما الجهاد او الدعوة الإسلامية ونشر تعاليم الدين الإسلامي، ورغم أن عددهم كان قليلا إلا أن دورهم كان بارزا في تحقيق التواصل بين المشرق والمغرب، ومن أبرز هؤلاء.

عبد العزيز بن يحيى المدني رحل من المدينة الى القيروان واستقر بها توفي سنة 225هـ، ومن مصر رحل زيد بن بشر بن عبد الرحمن الازدي المصري رحل الى القيروان ثم اتجه الى الأندلس، كما رحل الى القيروان المفسر يحيى بن سلام التميمي الكوفي سكن القيروان حتى وفاته سنة 200هـ، ومن الادباء رحل الخطيب أبو البشر إبراهيم بن محمد الشيباني البغدادي دخل الأندلس ثم استقر بالقيروان توفي سنة 298هـ.

كما رحل الى الجهاد بافريقية عبد الرحمن بن أبي بكر والمسيب بن مخزن ومن الفقهاء أبو الاشعث الكلبي وعبد الله بن المغيرة وأبو إسحاق بن مزاحم بن غياث وهو من التابعين.(محمد محمد زيتون القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية) وبعد القرن الخامس أصبح عدد المرتحلين الى بلاد المغرب قليل جدا مقارنة بالفترة السابقة ومنهم

تقي الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين المصري رحل الى الأندلس، وابن طراد النحوي الحجازي، كما رحل الى الأندلس عبد الرحمن بن داود بن علي (ت 608) وعمر بن داود بن عمر الفارسي البخاري من اهل التصوف رحل كذلك الى الاندلس (ت640) (المقري نفح الطيب ج2).

أما حركة العلماء والطلاب من المغرب الى المشرق فإن عددهم كبير ومن أبرزهم في المرحلة القريبة من الفتح، أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي القزاز ولد بالقيروان ثم رحل العراق (ت 412هـ)، جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة ج1) ومنهم أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي سحنون صاحب المدونة، كما رحل أبو يحيى حماد بن يحيى الى مكة والمدينة اخذ عن علمائها، كما رحل الى بلاد الشام خالد بن ربيعة الافريقي، كما رحل محمد بن سحنون الى المدينة سنة 235هـ.

أما بعد القرن الخامس والسادس فإن عدد المتحلين الى المشق تضاعف بسبب الأوضاع السياسية في بلاد المغرب، ومن أبرز النماذج، فمن الاندلس رحل كل من محمد بن احمد بن محمد بن إبراهيم بن سرقة شرف الدين رحل الى مصر(ت660هـ) وأبو عبد الله بن عبد الرحمن بن الحكيم الرندي ذو الوزرتين رحل الى مصر والحجاز وبلاد الشام (ت708هـ)، ومحمد بن عبد الله بن فرتون الانصاري رحل الى الحجاز (ت764هـ) وأبو بكر محمد بن عبد الله الاشبيلي المعروف بان العربي الذي رحل الى المشرق سنة 485هـ، وأبو بكر محمد بن الوليدالقرشي المالكي المعروف بالطرطوشي الذي زار الحرمين ودخل بغداد وبلاد الشام. (ابن بشكوال كتاب الصلة)

ومن نماذج بلاد المغرب رحل كل من أبو القاسم التنوخي من المغرب الأدنى الى مصر والحجاز واخذ عن عدة علماء (ت 622هـ) وأبو إسحاق إبراهيم بن خلف التنسي من المغرب الأوسط رحل الى القاهرة (ت 680هـ) وعبد السلام بن علي ازواوي بن سيد الناس رحل الى القاهرة (ت681هـ) وابن زيتون التونسي وأبو عبد الله العبدري الفاسي ومحمد بن إبراهيم الآبلي وأبو عبد الله المقري وابن مرزوق الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون وغيرهم.

(الغبريني، عنوان الدراية، ابن فرحون الديباج. محمد بن محمد مخلوف شجرة النور الزكية).

لقد ساهمت الرحلة العلمية في توثيق الصلات الثقافية بين المشرق والمغرب، كما سهلت من التواصل بين العلماء وحقيق التعاون في مجالات علمية، بل ساهم هؤلاء في ازدهار الحياة العلمية، حيث تولى العديد منهم التدريس والقضاء الامامة وغيرها، كما أدت الرحلة الى بروز مراكز واقطاب ارتبطت شهرتها بالنشاط التعليمي لكونها شكلت قبلة للعلماء والمدرسين والطلبة. كما أن الرحلة لم تقتصر على مجال علمي واحد بل ضمت كل فروع المعرفة، وبالتالي كانت من العوامل الأساسية في تحقيق التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب عبر المراحل التاريخية.